المتشابه والمحكم في القرآن الكريم
(بحث في دلالة الألفاظ القرآنية)

د. حسن عبد الغني الأسدي
جامعة كربلاء – كلية التربية

خلاصة البحث ونتائجه :

اعتمد الباحث رؤية منهجية جديدة سعى لتطبيقها في المجال البحث الدلالي في القرآن الكريم تستند هذه الرؤية على النظر الى القرآن الكريم بوصفه مدوّنة إلهية مستغنية عن غيرها في بيان معانيها، أو دلالة ألفاظها وذلك ما أبرزته طائفة من الآيات والأحاديث التي تدلّ على أنّ القرآن يفسّر بعضه بعضاً. وذهب بنا ذلك الى امكان تطبيق منهجية للقراءة والتحليل هي(غلق المدونة)ومحاولة السعي لوضع المنهج الذي عملنا على طرحه في بعض بحوثنا وهو:(منهج الدلالة القرآنية للألفاظ) موضع التطبيق؛وبخاصة في الكشف عن دلالة هذه الألفاظ(أعني:محكمات وأحكمت ومتشابه ومتشابهات)والتي شغل البحث عن دلالتها مساحة واسعة في كتب التفسير وكتب علوم القرآن. وقد توصل البحث إلى النتائج الآتية:

١) عمل البحث عبر المنهج الجديد، وغلق المدوّنة على اظهار الأثر المهم للجانب اللغوي، وبخاصة الجانب الدلالي للألفاظ .وإنّ للسياق اللفظي(اللغوي) أثرا فاعلاً في الكشف عن دلالة اللفظة؛إذ هو السياق الوحيد الذي يظهر في المدوّنة الإلهية(القرآن).ولا يمكن في ضوء ذلك الأخذ بسياق الحال والمقام(أسباب النزول)، إلاّ في سياق تعضد ما يتوصل إليه عبر السياق اللفظيّ.

٢) كل ما استعمل من مادة (شبه) في القرآن الكريم جاء بدلالة المشابهة في الصورة والتكوين الخارجي ؛ولم يُستعمل بدلالة الالتباس.

٣)الدلالة القرآنية للفظة (متشابه)هي:التشابه الكائن بين أقسام الشيء الواحد،أو بين مكوناته.وما وُصِف بهذه اللفظة فهو يشتمل على تعدّد في داخله، كما في وصف كتاب بـ(متشابه)، ووصف آيات بـ(متشابهات) .فإنّ هذا الكتاب ذو آيات يشبه بعضها بعضاً في لفظها،وصورتها الخارجية المدركة بالبصر.وكذا الحال في متشابهات.

٤)لم يكن قسما الآيات: محكمات ومتشابهات في الآية(٧) من آل عمران خاصا بآيات القرآن الكريم، بل يخصّ قسما من آيات (الكتاب)، وهوكتاب عنده تعالى ذكر فيه تفصيل كل شيء. وقد أطلَع الله تعالى نبيه الكريم(صلى الله عليه واله وسلم) على ما فيه.

٥) إنّ تقسيم آيات الكتاب على القسمين الآنفي الذكر لا يشمل كل آيات الكتاب أو مكوناته؛ بل قسما منه ضمّ هذين النوعين من الآيات؛ لأنّ وجود (منه) دالّ في موضعه على وجود غيرها.وهو ما لم يلتف إليه المفسرون.

٦) أشارت الآية (٢٢) من سورة الزمر إلى كتاب إلهيّ ذي نمط خاصّ؛ آياته يشبه بعضها بعضا لوصفه بـ(متشابه) وقد رتبت آياته على هيأة تجمّعات ثنائية لوصفه بـ(مثانٍ).وهذا الوصف الأخير يجعله ضمن الكتب أو الصحف السبعة التي ذكرت في الآية(وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ)(الحجر٨٧) .ومعلوم أنّ ذلك يخالف ما ذهب إليه المفسّرون من دلالة السبع المثاني التي اختلفوا فيها كثيرا.

٧) تسلك المحكمات مسلك المفاتيح التي بها يمكن تغيير ما نزل من حوادث عامة أوخاصة. وتفرّد الله (عزوجل) بمعرفتها وكانت تسميتها بـ(أمّ الكتاب)لدلالة الهيمنة والتحكم ولا يدرك سرها،وماهيتها إلاّ هو قال تعالى:(يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ)(الرعد٣٩)، وتظهر هذه الهيمنة والتحكم في استعمال آخرهو(أمّ القرى).أمّا المتشابهات فآيات الكتاب التي يتشابه بعضها مع بعض،و تبدو في النظم كأنها تختزل تفصيل كل الحوادث في هذا الكون منذ بدايته الى نهايته. ويظهر من ذلك ما جاء بقوله تعالى:(الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ)(هود١).

٨) كان سعيّ الباحث أنّ يتمسّك بما رسم لنفسه من منهج يفسّر القرآن بالقرآن؛وكان المدخل الى ذلك مرتكزا على ألفاظ القرآن؛ وماتكون من سياق لغويّ؛ ولذلك فإنّ ما أوردته من أحاديث أو أقوال لبعض العلماء والمتقدمين هو من باب الإستزادة والتعضيد ولم يكن من باب التأسيس.

توطئة: منهج الدلالة القرآنية للألفاظ

أسسنا بحثنا لفهم دلالة الألفاظ القرآنية، وهي الدلالة التي استعملت بها لفظة ما في القرآن الكريم،على مقاربة يتوسّم بها طرح معالم منهجية لدلالة الألفاظ من خلال تفسير النص بالنصّ نفسه وهوما عرف في التراث التفسيري بتفسير القرآن بالقرآن ،وكانت الأحاديث قد أشارت الى خصيصة هذا النص وقدرته على تفسير نفسه بنفسه وتبيين بعضه ببعض. إنّ تفسير القرآن بالقرآن يمثّل نوعا من فهم النصّ تتقارب وماعرف من وجهة معاصرة بـ(منهج غلق المدونة)، وهو منهج يتم النظر فيه إلى كتاب ما أو نص ما بوصفه منظومة لغوية دلالية مستقلة لها نظامها التركيبي والدلالي المستقل وهو منهج أشبه ما يكون بالطريقة التي يتّبعها عالم الآثار في فهمه لما يقع له من قطع طينية ونقوش على جدران الأبنية من بعض الحضارات الموغلة في القدم، ولا طريق له إلا الإمعان والتأمل في هذه البقايا وأجزائها ليكتشف دلالاتها، ويقدم صورة عن تلك الحضارة التي خلفتها.فكذلك هذا المنهج (منهج غلق المدونة)بالنسبة للباحث اللغوي ستكون وظيفته تجاه النص الكشف عن دلالة مفرداته وتركيباته وكيفية الترابط بين أجزائه ثم مقاصده للخروج بمعلومات لغوية أوغير لغوية.مع رفض الآراء المسبقة لفهم النصّ.(١) يلاحظ في عملنا أنّ ذكر المعاني المعجمية يأتي لا بوصفها دلالة للفظة في القرآن؛ بل بوصفها معاني أولية تؤسّس عليها تلك الدلالة حتما، ولا يمكن تجاهل دلالاتها فيما بين الرسول(صلى الله عليه وآله) و المرسل إليهم إذ الرسالة نسجت بلغتهم، وذلك هوالقانون الإلهي في مخاطبة الأمم كما يظهرمن قوله تعالى:(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إلاّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَالْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)(إبراهيم٤)؛ ووصفنا

للمعاني اللغوية بأنها أولية ينبع من رؤية تقوم على النظرفي هذه المعاني،أو تعددها للفظة الواحدة كونها وليدة نظرات بالغت في التوسع الدلالي،وخلطت الدلالة اللغوية بغيرها. لهذا ينبغي بذل الجهد للوقوف على الدلالة اللغوية التي كان العرب يستعملونها في كلامهم في الحقبة التي شهدت نزول الوحي. ونشير أيضاً إلى اهتمام البحث بذكر الاقترانات اللفظية التي تصاحب اللفظة القرآنية،وتلك هي(السياق اللفظي أو اللغوي)الذي تعمل اللفظة على استدعائه، وذلك لما لتلك الاقترانات اللفظية (المصاحبات) من أثر في تحديد دلالة اللفظة. الاقترانات اللفظية متعددة فقد تكون ألفاظا أو تركيبا معينا أو بنية صرفية أو أداة رابطة. ويبدو أنّ ما عرف عند علماء التفسيربـ(تفسير القرآن بالقرآن) لم يكن ذا منهج فاعل في التفسير قديما أوحديثا؛ ويعود ذلك إلى أسباب متعدّدة من أهمها إفتقارالتفسير ههنا إلى خطوات منهجية ضابطة.إنّ ما يقوم المفسّر به في أولى خطوات تفسيره هي أن يبدأ ببناء تفسيره على فهم دلالة الألفاظ القرآنية. ولعل أبرز أوجه فهم الدلالة ههنا هي تتبع استعمال اللفظة في كل مواردها في القرآن الكريم ؛ وهي خطوة أولى للكشف عن الدلالة القرآنية للفظة. ولقد حاولت في بحث مستقلّ وضع معالم لمنهج جديد هو(منهج الدلالة القرآنية للألفاظ) يتأسس على اعتبارالقرآن مدوّنة متكاملة دلاليّا يستطيع المتلقى إدراك معانيها إذا نظر إليها بوصفها وحدة مدوّنة لها نظامها في صوغ دلالة ألفاظها وآياتها.

المبحث الأول :المتشابه: الدلالة و ضياع المفهوم

الدلالة اللغوية للمتشابه:

تعود لفظة المشابه إلى المادة اللغوية (شبه) ، قال فيها ابن منظور: ((الشَبَه والشَبه والشِبه والشبيه:المثل والجمع أشباه . وأشبه الشيء الشيئ:ماثله، وفي المثل :من أشبه أباه فما ظلم...)) ٢وقال : ((أشبهت فلانا وشابهته و أشتبه عليّ وتشابه الشيئان واشتبها أشبه كل واحد منهما صاحبه ، وفي التنزيل : مشتبها وغير متشابه))٣ فالمعنى المشترك لاشتقاقات هذه المادة هو المشابهة والتماثل بين الأشياء من ههنا فالمتشابه هو اسم الفاعل من الفعل(تشابه) وتستبطن بنية هذا الاسم المشاركة ما يعني أنّ المتشابه هو الذي يتشابه مع غيره أو الذي يتشابه أفراده بعضهم مع بعض. ومن الفعل أشتبه أخذ اسم الفاعل(مشتبه) وبنية هذا الفعل تستبطن حدوث المشابهة بعد أن لم تكن٤. وجاء في اللسان أيضاً ((المتشابهات:المتماثلات، وتشبه فلان بكذا والتشبيه التمثيل))٥ . ويظهرأنّ هذه الدلالة هي الأولى وتطور منها معنى الالتباس؛ إذ إنّ الأمور إذا أشبه بعضها بعضا لم تتميز ؛ولهذا قيل: ((المشتبهات من الأمور:المشكلات، وجاء في حديث حذيفة :ذكر فتنة فقال تشبه مقبلة وتبين مدبرة،قال شمر: معناه ان الفتنة إذا أقبلت شبهت على القوم وأرتهم أنهم على الحق حتى يدخلوا فيها و يركبوا منها ما لا يحل ؛فإذا أدبرت وانقضت بان أمرها،فعلم من دخل فيها انه كان على خطأ. والشبهة: الالتباس.وأمور مشتبهة ومشبهة :مشكلة يشبه بعضها بعضا...وشبه عليه :خلط عليه الأمر حتى اشتبه بغيره))٦ . فالنص المتقدم يلمح الى الجهة التي تطورت منها دلالة الإلتباس التي ظهرت في بعض اشتقاقات هذه مادة(شبه) وذلك مؤسس على المعنى الأول، وهو المشابهة والتماثل،إذ لولا ما حصل من تشابه الأمور بعضها بعضا لما خلط بينها،ولم يمكن تمييزها. وسيظهر أن القرآن الكريم حافظ على استعمال ألفاظ هذه المادة بالمعنى الأول كما هو؛ إذ لم يرد من ألفاظ القرآن من هذه المادة ومنها لفظتا متشابه ومتشابهات إلا وهو يحمل دلالة المشابهة ولم يرد منها ما حمل دلالة الالتباس .

تعدد الدلالة الإصطلاحيّة وضياع المفهوم:

لقد تعددت الآراء في تحديد دلالة المتشابه في القرآن الكريم، وبخاصة ما أشارت إليه الآية السابعة من سورة آل عمران، وهي قوله تعالى:

(هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ)(آل عمران/٧). قال الفخر الرازيّ:((الناس قد أكثروا من الوجوه في تفسير المحكم والمتشابه، ونحن نذكر الوجه الملخص الذي عليه أكثر المحققين، ثم نذكر عقيبه أقوال الناس فيه))٧،وأوصل المتتبعون عدد هذه الآراء إلى ستة عشر رأيا٨، وأقترن الكلام عندهم في هذه الآراء بالمحكم بوصفه القسم المقابل للمشابه، وأقترن ذلك أيضا ببيان رأيهم في دلالة(التأويل)، وكانت هذه الألفاظ الثلاثة مدارا للإجتهاد وكأنه لا مشاحة في الإتيان برأي أو أكثر مع فقدان الدليل الذي يخص دلالة ما دون غيرها ، فمن ذلك ذهاب بعضهم إلى القول بأن الحروف المقطعة في بدايات بعض السور القرآنية هي الآيات المحكمات و الآيات الأخرى متشابهات ، و قول بعضهم ان الآيات المنسوخة هي المتشابهة وان الناسخة هي المحكمة ،ومن غير الواضح ههنا كيف سيتبع من في قلوبهم زيغ الآيات المنسوخة لإحداث الفتنة،وطلب تأويلها .ونحا بعض المفسرين و الباحثين في علوم القرآن إلى القول بان المتشابه ما لا مصداق محدد له في الواقع أما المحكم فما له مصداق واقعي محدد . والتأويل هو وجود ذلك المصداق الواقعي لما أورد من آيات.زيادة على ان لكل رأي من الآراء مأخذاً أو أكثر ضد الآراء الأخرى ،إلا أن الشائع عند معظم المتأخرين ذهابهم إلى كون المحكم ما أريد به ظاهراللفظ من الآيات القرآنية ، إما المتشابه منها فهو ما أريد به خلاف ظاهره.(٩)وهو المعنى المراد بالمعنى الباطن! يرد في هذا الموضوع ما جاء من الآيات في وصف القرآن نفسه بكونه:(أَلَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ)(هود١)، وفي آية أخرى جاء الوصف الذي يفهم منه أنّ القرآن كله كتاب متشابه وذلك في قوله تعالى :(اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ...)(الزمر٢٣) وبين الآية الاولى التي تقول أنه كله كتاب محكم و الثانية التي تقول كله متشابه ياتي قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ....)(آل عمران٧)التي تقول إن من الكتاب ما هو محكم وومنه ما هو متشابه ، ولعل اللافت هنا أنهم قد قبلوا التناقض في مدلول هذه الآيات من حيث أرادوا أم لم يريدوا؛و في سبيل رفع هذا التناقض ذهبوا إلى ما ظنوا أنّه المخرج الذي يرفع هذا التناقض فجعلوا الإحكام من جهة، والتشابه من جهة أخرى، وفي هذا الصدد يقول أحد الباحثين ((ويكاد الباحثون في علوم القرآن يتفقون على تعيين معنى كل من الوصفين في استعمالهما الأول الشامل حيث يجدون ان العلاقة التي صححت إطلاق وصف الإحكام على الآيات

القرآنية كلها هي ما في القرآن من إحكام النظم وإتقانه ، وما فيه من التماسك والانسجام في الأفكار و المفاهيم والأنظمة والقوانين .كما يجدون إن العلاقة التي صححت إطلاق وصف المتشابه عليه هي:محض التماثل والتشابه بين بعضه وبعضه الآخر في الأسلوب والهدف،وسلامته من التناقض والتفاوت والاختلاف:(أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا اختلافا كثيرا)(النساء /٨٢)))(١٠) ويتضح من النص ان ما صححوا به لا يعدو أن يكون رأياً لا يمتلك دليلا علميا على هذا التصحيح (الذي يرفع التناقض !).ويبدو لنا أنّ الذي أوصلهم إلى هذا الموضع انهم لم يحاولوا معرفة دلالة هذه الألفاظ القرآنية من خلال سياقاتها اللفظية ، ولم يكن لهم شأن في تتبع موارد استعمال هذه الألفاظ في القرآن الكريم ، بل تعاملوا مع كل موضع منها كون ما ورد فيه من لفظ بدلالة وان ما ورد في الموضع الآخر بدلالة أخرى هذا من جهة و من جهة أخرى لم يفرقوا بين استعمال الفعل (أحكمت) في موضع واستعمال الاسم(محكمات) في موضع آخر.زيادة على أنهم فهموا من وصفي المتشابه و المحكم كونهما متعلقين بالقرآن الكريم ، علما أنّ الآيات الثلاثة الآنفة الذكر ليس فيها ذكر للفظة القرآن ، كل ما في الأمر أن مجيء لفظتي الكتاب وكتاب دعتهم الى أن يفهموا منهما دلالتهما على القرآن ؛وهو أمر نرى أن تتبع اللفظة في موارد استعمالها في القرآن هو الذي يبيّن مدى صحة هذا الفهم من عدمه؛ وذلك ما سيعمل البحث على بيانه على نحو التفصيل لما بين لفظتي الكتاب والمتشابه من ترابط .

المبحث الثاني:الألفاظ القرآنية وغلق المدونة

أشرت فيما سبق إلى أن المفسرين وغيرهم من الباحثين في العلوم القرآنية لم يعطوا لأنفسهم فسحة للكشف عن دلالة الألفاظ القرآنية من مواضع استعمالها في النص المقدس؛ وهو ما أدى الى ظهور كم من الآراء لا تعبّر إلا عن ضياع المفهوم الدلالي الذي أراده القرآن من ألفاظه. ولما كان الإطار المنهجي في الكشف الدلالي في بحثنا هذا يرتكز على(منهج غلق المدونة) فان تتبع موارد استعمال الألفاظ المشتقة من المادة اللغوية (شبه) في القرآن الكريم سيكون جزءا مهما في عملنا مع ملاحظة الاقترانات اللفظية المصاحبة للفظة الاساس؛ لهذا سيكون تقسيم موضوعات هذا المبحث قائما على وفق ورود اشتقاقات هذه المادة في النص القرآني وهي كما يأتي:

١ـ استعمال(شبه).
٢ـ استعمال(تشابه) .
٣ـ استعمال(تشابهت).
٤ـ استعمال(مشتبه).
٥ـ استعمال(متشابه).
٦ـ استعمال(متشابهات).

فهذه الألفاظ هي التي وردت في القرآن الكريم ويبلغ موارد استعمالها اثنا عشر مورداً، جاءت في ستة سور هي سور:(البقرة وآل عمران والنساء والأنعام والرعد والزمر). وفيما يأتي التفصيل في هذه الموارد بحسب الألفاظ الآنفة الذكر :

١ـ استعمال شبه: جاء استعمال هذا الفعل في سياق نفي ادعاء اليهود قتلهم نبي الله عيسى عليه السلام،وذلك في قوله تعالى: (وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا) (النساء/ ١٥٧) فالآية بعد أن تنفي ادعاء اليهود قتلهم المسيح (عليه السلام) تستدرك على ذلك بذكر ما أوقعهم في ذلك بقوله(ولكن شبه لهم) فهناك رجل آخر قاموا بقتله ظنا منهم انه رسول الله عيسى (عليه السلام)؛وذلك لشبهه نبي الله عيسى وزادت الآية تأكيدها في إن الذي حصل كانوا فيه مختلفين إذ يبدو أن بعضهم لحظ أنّ من قتلوه ليس هو المسيح بل انه شبيه به؛ ومن ههنا كان عملهم قائما على الظن مع تأكيد النفي الإلهي بقوله (وما قتلوه يقينا)! و بهذا تظهر دلالة هذا الفعل(أي:شبه)على المشابهة في الصورة والهيئة الخارجية.

٢ـ استعمال (تشابه) : استعمل هذا الفعل في ثلاثة موارد:أولها في سورة البقرة في قصة بقرة بني إسرائيل التي أمروا بذبحها؛ وكان أول كلامهم لنبي الله موسى (عليه السلام):(قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا) وطلبوا من الله تعالى ذكر الأوصاف التي تميز البقرة المطلوبة من غيرها، قال تعالى: (قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ* قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ)(البقرة ٧٠-٧١) الملاحظ أنّ اليهود حاولوا المماطلة من جهة أن تمييز أفراد جنس الحيوان يتم من خلال صفاته الخارجية كاللون والعمر وطبيعة الأعمال التي تسخر فيها ونحو ذلك .ومن ل١٠دون هذه الصفات لايمكن تمييز أفراد الجنس(البقر)؛لهذا جاء قولهم (إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا) فلا يستطيعون التفريق بين بقرة وأخربلتشابههما. وقولهم (الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ) هوذكر الصفات المميزة بين الأفراد الذي يزيل التشابه العام بين الأفراد،ويقطع العنت والمماطلة لهؤلاء وإلاّ فإنّ كل طلب من الله ورسوله هو حق بذاته . وجاء استعمال الفعل(تشابه)في إطار المشابهة والتماثل المفترض حدوثهما بين صنفين من الخلق وذلك دحضا لحجة من إتّخذ إلها آخرغيرالله تعالى، قال تعالى: (قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)(الرعد١٦). فدلالة الفعل(تشابه) هي المشابه والتماثل في الصورة والتكوين الخارجي ووقوع ذلك على نحو المشاركة بين الأفراد فلا يمكن التمييز بين الخلق.وهوفرض نفته الآية للاحتجاج على القائلين بالشركاء. ووردت الكاف في قوله (خَلَقُوا كَخَلْقِهِ)بمنزلة النص على دلالة المشابه في الفعل. أما المورد الثالث لاستعمال هذا الفعل فجاء في (آ ل عمران٧) ولم تخرج دلالة الفعل فيه عمّا ذكر في الموضعين السابقين .ولنا وقفة مفصّلة مع هذه الآية قريباً.

٣ـ استعمال (تشابهت): جاء الفعل(تشابه) وقد ألحقت به تاء التأنيث في مورد واحد وهو قوله تعالى: (وقال الذين لا يعلمون لولا يكلّمنا الله أو تأتينا آية كذلك قالَ الّذين من قبلِهم مثلَ قولِهم تشابهَت قلوبُهم قد بيَّنا الآياتِ لقوم يُوقنون) (البقرة١١٨). فدلالة الفعل(تشابهت) واضحة في المشابهة والتماثل بين القلوب.

٤ـ استعمال (مشتبه): ذُكر هذا اللفظ في مورد واحد وذلك في(الأنعام ٩٩)،جاء في اللسان:((وأشبهت فلانا وشابهته واشتبه عليّ وتشابه الشيئان واشتبها: أشبه كل واحد منها صاحبه. وفي التنزيل : مشتبها وغير متشابه))(١١) ،وسنقف عند هذه اللفظة قريباً.

٥ـ استعمال (متشابه): ورد هذا الاسم في أربعة موارد قرآنية :أولها في سورة البقرة، وهو قوله تعالى :(وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (البقرة ٢٥). إنّ التشابه بين ثمار الرزقين الرزق في الجنات والرزق من قبلها سيكون ملاحظا عند هؤلاء، ولهذا قالوا:هذا الذي رزقنا من قبل؛ فكانت دلالة(متشابه) واضحة في المشابهة والتماثل في الصورة والهيأة الخارجية ويعضّد هذا القول في دلالة هذا اللفظة ما جاء عن الإمام السجّاد علي بن الحسين(عليه السلام) في دلالة اللفظة في قوله تعالى:(وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا)(البقرة٢٥) بقوله:((يشبه بعضه بعضا بابها كلها خيار،لا رذل فيها. وبأنّ كل صنف منها في غاية الطيب،واللذة؛ ليس كثمار الدنيا التي بعضها نيء،وبعضها متجاوز لحد النضج والادراك إلى الفساد من حموضة ومرارة ،وسائر ضروب المكاره ومتشابها أيضا متفقات الألوان مختلفات الطعوم)).(١٢) جاء في اللسان قوله: ((وأما قوله:(وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا) فانّ أهل اللغة قالوا معنى متشابها يشبه بعضه بعضا في الجودة والحسن. وقال المفسرون: متشابها يشبه بعضه بعضا في الصورة ويختلف في الطعم ودليل المفسرين قوله تعالى:(هذا الذي رزقنا من قبل) لأنّ صورته الصورة الأولى ،ولكن اختلاف الطعم مع اتفاق الصورة أبلغ وأغرب عند الخلق)) (١٣). وجاء عن ابن الأعرابي:((وشبّه إذا ساوى بين شيء وشيء))،وعنه في قوله تعالى:(وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا)، قال:((ليس من الاشتباه المشكل إنما هو من التشابه الذي هو بمعنى الاستواء))(١٤). ومن موارد هذا اللفظ قوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (الأنعام ٩٩). وجاء في السورة نفسها قوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ)(الأنعام ١٤١) الملاحظ أن دلالتي اللفظتين (مشتبها ومتشابه) في الآيتين لا تخرج في إطارهما الدلالي العام عن دلالة المشابهة والتماثل التي ظهرت فيما سبق من ألفاظ المادة اللغوية (شبه). ويعني هذا أنّ (متشابها) متعلق بالهاء في (به) في (البقرة٢٥)،وهويعود على الرزق الذي يؤتي إليهم في الجنات،وهي تبين حال هذا الرزق وتصفه بان ثماره يشبه بعضها بعضا لا أن يراد مشابهتها لثمار الدنيا كما تقدم آنفا .إذاً فدلالة متشابه ستكون للشيء يشتمل على التعدد ويشبه بعض أفراده بعضها الآخر . أما قوله:(مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ)و(مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ)المذكوران في الآيتين من سورة الأنعام فهو ممّا يخص ثمار الدنيا التي تتعدّد مظاهر المشابهة بينها كما تتعدّد مظاهر عدم المشابهة فالثمار المذكورة تشترك في تكوينها على شكل تجمع عنقودي وفي داخل ثمرتها النوى التي لا تأكل في العادة، وهي مختلفة في طبيعة ثمارها وطعومها، ونحو ذلك .وإذا كان (متشابه) قد أشير به إلى مجمل هذه الثمار(الرزق)و تشابه أفراده، كما جاء في (وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا) فان (مشتبه) اقرب إلى تعلق دلالته بما بين أفراد الصنف الواحد من مشابه إذ معلوم أن جنس الرمان أو الزيتون يضم أنواعاً عدة لها ما يميزها ولكنها تبقى متشابهة ضمن الجنس الأكبر. ويتناسب ذلك وافتعال الشبه الذي تدل عليه صيغة (مُفْتَعِل) إذ إنّ تمايز الأصناف داخل الجنس الواحد يحدث في مرحلة تالية من مراحل النمو، ولولا هذا التمايز(الاختلاف) لما برز التشابه. ومن هنا فان التشابه لا يعني التماثل التام،والاستواء في كل شيء بل يعني الشبه من جهات كثيرة و الاختلاف في جهة أو أكثر ما يعني أنّ المتشابه في القرآن الكريم اقرب إلى تكون دلالته على المشابه في صورة والتكوين أو الهيأة الخارجية. وهي دلالة يمكن ان تلاحظ في الألفاظ الأخرى التي مضى ذكرها وهي (شبه وتشابه ومشتبه) وستأتي لفظة (متشابهات) قريبا. وبقي لـ(متشابه) مورد واحد سنعرض له في الفقرة الآتية.

٦_ استعمال (متشابهات): هذه اللفظة جمع مؤنث مفردها متشابهة وكذا متشابه ولم يستعمل المفرد المؤنث في القرآن الكريم. ووردت لفظة(متشابهات) مرة واحدة وذلك في وصف قسم من الكتاب، وذلك في قوله تعالى:

(هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ...) (آل عمران ٧) يدل هذا اللفظ على ان هذا القسم من آيات الكتاب يشبه بعضها بعضا .فهي متشابهات من خلال النظر إلى بعضها نسبة إلى بعضها الآخر؛ لما في صيغة جمع المؤنث من تعدد الأفراد ، إذ لم يذكر شيئ تتشابه معه والشيئ لا يمكن ان يكون شبيها لنفسه إلا إذا كان متعددا.وهو الأمر الذي نلاحظه في وصف كتاب بأنه متشابه ؛وسيأتي ذكرالآية فقد وصف الله تعالى هذا الكتاب بـ(متشابه) ما يعني ان الآيات الذي يتضمنها هذا الكتاب كلها يشبه بعضها بعضا، وواضح قرب هذا الوصف من الوصف المذكور آنفاً أن قسما من الآيات الكتاب هي متشابهات . وللبحث وقفة مطولة عند هذين اللفظين في المبحث الثاني . نلخص في نهاية هذا المبحث الذي تتبعنا فيه موارد استعمال الألفاظ المأخوذة من مادة (شبه) إلى أن هذا الألفاظ قد وردت في القرآن الكريم بدلالة التشابه ولم يأت منها ما استعمل بدلالة الالتباس . ما يعني أنّ القرآن الكريم قد أبقى هذه الألفاظ داخل الإطار العام لمعناها اللغوي الأول.ولقد جاء استعمال القرآن بدلالة أخصّ هي: دلالة المشابه التي تكون بين أفراد الشيء الواحد أو ما بحكمه . وهو ما ظهر في المواضع الأخرى التي استعملت فيها هذه اللفظة ومن ثمّ وصف ما نزّله الله بأنه (كتابا متشابها) لا يستقيم إلاّ على ماتعدّد في ذاته بكونه ذا أفراد وإنّ تلك الأفراد يشبه بعضها بعضاً؛فيكون كلّه متشابهاً في الصورة (الهيأة الخارجية).وهو الذي يعضّده تفسير الإمام السجاد (عليه السلام) لقوله تعالى : ((وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا)) فقد ذهب المفسرون و الباحثون في علوم القرآن-كما سبق أن ذكرنا- في فهمهم لاطلاق وصف المحكم على كل الكتاب في آية(هود١)، ووصفه بأنه كله متشابه في آية أخرى(الزمر٢٣) إلى أنّ الجهة التي وصف من خلالها الكتاب فيهما مختلفة؛ فوصف بـ(المتشابه) للتشابه بين أفراده في الأسلوب والهدف وسلامته من التناقض، ونحو ذلك وهومّما لا دليل لقائله عليه وكذلك الحال في صفة الإحكام التي فهموها من جهة ما في القرآن من إحكام النظم وإتقانه ، وما فيه من التماسك والانسجام في الأفكار و المفاهيم والأنظمة والقوانين؟!.

إن وصف الكتاب بهذا اللفظ (أعني:متشابه) يظهر في الاستعمال القرآني أنّ الآيات التي يتضمنها يشبه بعضها بعضا، وتتحدّد جهة الشبه من المشابهة في الصورة والتكوين الخارجي لا ماتقدّم من قول المفسّرين وأهل علوم القرآن.

المبحث الثالث: كتاب كلّه متشابه

إنّ الوصف الذي قدّمته الآية لبعض ما أنزل الله بكونه كتاباً يشبه بعضه بعضاً، وفهم منه المفسّرون أنّ المقصود به كتاب الله القرآن الكريم فيه نظر ،لاسيما عبر ما نسعى إليه من تحديد دلالة الألفاظ القرآنية من داخل القرآن نفسه؛ وفيما يأتي تفصيل ما ذكرته الآية وهي قوله تعالى: (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)(الزمر٢٣) ونرتب النظر هنا على وفق الألفاظ بحسب ورودها في الآية : (أولا)- أَحْسَنَ الْحَدِيثِ : وهو أول أوصاف الكتاب المذكور وجاء بعد إسناد نزّل إلى الله(عزّ وجلّ) وهوإسناد يلمح الى عظيم مكانة هذا الكتاب . وجاء الوصف بـ(أحسن) ليشير إلى أعلى درجات الاتقان لما أضيف إليه؛ وهو لفظة (الحديث)،وهي من الألفاظ القرآنية التي تكرر استعمالها في أكثر من موضع في القرآن الكريم؛ وسيساعدنا هذا الأمر في الوقوف على الدلالة القرآنية لهذه اللفظة.ومن ثم ستكون المفتاح لفهم طبيعة الموضوعات التي اهتم بها هذا الكتاب .وطبيعة الآيات التي تكوّن منها!. أقول استعمل (الحديث) في القرآن الكريم في خمسة موارد أخرى هي :

(أ) قال تعالى:(فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا)(الكهف٦)

(ب)قال تعالى:(أَزِفَتِ الْآزِفَةُ* لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ * أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ*وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ)(النجم٥٧- ٦٠).

(ج) قال تعالى:(إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ*فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ*لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ*تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ *أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ* وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ)(الواقعة٧٧-٨٢).

(د) قال تعالى:(يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ*خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ* فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ)(القلم٤٢-٤٤).

(هـ) قال تعالى:(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ*وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)(لقمان٦-٧).

والتأمل في هذه الموارد يقود الى النتائج الآتية:

أولا- اقترن استعمال(هذا الحديث)بطائفة من الألفاظ التي ترسم لنا ظلال لدلالة لفظة الحديث الذي جاء متعلّقاً بألفاظ:[تَعْجَبُونَ ،ومُدْهِنُون،و يُكَذِّبُ،و لَمْ يُؤْمِنُوا] ما يوضح أنه أمر لقى الرفض. ويظهر أنّ هذا الرفض كان من المسلمين، إذ إنّ ورد في المورد الأول من الألفاظ ما يبيّن أنهم كانوا قد آمنوا من قبل بما جاءهم به الرسول(صلى الله عليه وآله) لكنهم رفضوا الإيمان بهذا اللأمر وكان الرفض شديد الوطأة على رسول الرحمة ؛ فلفظة باخع استعملت للدلالة على قرب الهلاك أسفا على هؤلاء الذين لم يؤمنوا بهذا الأمر وولاسيما مع استعمال الفعل ههنا (اي: لم يؤمنوا) على حين اختلف الأمر في المورد الآخر لـ(باخع)، وذلك بقوله تعالى:(لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)(الشعراء٣) فهذا المورد أقل وطأة على رسول الله؛ فلم يرد في هذا الموضع لفظة(أَسَفاً) كما جاء استعمال الاسم(مؤمنين)ولم يستعمل الفعل.

ثانيا- يبدو أنّ الأمر المعبّر عنه بـ(الحديث) تتعلق دلالته بالحوادث التي هي جزء من الغيب ،مما يحدث في مستقبل الزمان؛ ولعله من ملاحم آخر الزمان!. ورائدي في هذا القول لفظة الأحاديث التي اقتصر استعمالها في سورة يوسف(عليه السلام) بوصفها مما علّم الله تعالى نبيه يوسف الصديق(ع) تأويلها أي: قدرته على إظهار تلك الأحاديث.وهي من اتمام نعمته عليه وعلى آل أبيه يعقوب(عليه السلام) وكان قد أتمها الله تعالى على آبائه قال تعالى:(وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)(يوسف٦)وتظهر بوضوح في جوابه لصاحبيه في السجن ، فكان جوابه لهما على ما رأى كل منهما في المنام أن عرفهما بحقيقة ما سيحدث له في المستقبل بل قال لهما:(قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ)(يوسف٣٧)؛ مع ملاحظة اقتران الألفاظ : علّم وتأويل والأحاديث ومن التبعيضية ببعضها في كل مواردها في هذه السورة .

ثالثاً- ويشير المورد(هـ)إلى أن هذا الحديث سيتخذ عند بعض الناس لهواً،وهزواً ولاتكون له المنزلة التي أرادها الله لها كما قد يفهم من دلالة(لهوالحديث)وبخاصة لو أخذنا اللفظتين كلّ منهما على نحو مستقل عن الأخرى.(١٥)

رابعاً- الملاحظة البارزة في قوله (أحسن الحديث) تعني أن هذا المذكور هو أرفع درجة وأعلى رتبة من غيره من الأحاديث التي عُلّمها يوسف الصديق(عليه السلام) ،كما انّه أرفع درجة ممّا عُلّم العبد الصالح الذي اصطحب نبي الله موسى(عليه السلام)المذكورفي قوله تعالى:(قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا)(الكهف٧٠)فجاء بالفعل(أحدث) ثم آل الأمرإلى ماذكره تعالى:(.. وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا)(الكهف ٨٢) فذكر(تأويل) أفعاله الثلاثة وهي : خرق السفينة وقتل الغلام وبناء الجدار.وهي أفعال قام بها ذلك العبد من علمه بمستقبل الأمور، التي لم يطلع الله تعالى عليه نبيه الكليم موسى(عليه السلام)إذن فان(أحسن الحديث) يعبرعن أجود تلك الأحاديث أو أجود أمورالغيب التي يطلع الله عليها بعض أوليائه ويمكن أن يكون ذلك الحديث متعلّق بالوعد للذين آمنوا الوارد في قوله تعالى:(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)(النور٥٥).

(٢)- كتابا : يشير هذا اللفظ إلى الهيأة التي نزل بها ما تقدم وصفه بأحسن الحديث فقد نزّله الله بهيأة مكتوب وهنا ينبغي أن يوجد ما يكتب عليه وفي اللسان:((...فالكِتابُ ما يُكْتَبُ فيه وقيل الصّحيفة والدَّواةُ)) و((الكتاب ما يكتب فيه))(١٦) كما أنه يفيد اشتماله على مسائل متحدة في الجنس(١٧).على ما جاء في الدلالة اللغوية التي لم تبتعد عنها الدلالة القرآنية للفظة(الكتاب) وهذا الوصف لا ينطبق على القرآن الكريم الذي أُنزل وحيا مفرّقا وآيات تتلى وليس مدوّنا؛ قال تعالى:(وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا)(الإسراء١٠٦).وتعدّ لفظة الكتاب القرآنية من الألفاظ التي اختلف العلماء في تحديد دلالتها .وهو أمر تكفّل تفصيله

بحث مستقل للدلالة القرآنية للفظة الكتاب ؛ إلا أننا يمكن أن نتصور وجود صحف عند رسول الله (ص)على غرار ما كان عند موسى (ع) من صحف وألواح الى جانب التوراة. يقتصر ما فيها على ذكر الحوادث التي ستقع في المستقبل، بخاصة أنّ هناك أحاديث نبوية كثيرة تتحدث عن الملاحم والفتن وما مرّ بالمسلمين،وما سيمرّ بهم حتى قيام الساعة.والتفاصيل في هذا المجال كثيرة عند مختلف المذاهب الإسلامية.

(٣)- متشابها : وهي اللفظة التي عقد البحث للكشف عن دلالتها القرآنية، وسبق القول أنها تعني المشابهة في الصورة والهيأة الخارجية المرئية ؛ولما كان من خصائص القرآن أنه لا اختلاف فيه ؛إذن فسيكون لكل لفظة قرآنية دلالة واحدة تصحبها أينما استعملت في القرآن؛وذلك للدليل الذي تتضمنه الآية من قوله تعالى:(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا)(النساء٨٢)إذ إنّ تعدد الدلالة للفظة الواحدة بين مورد وآخر هو من الاختلاف المنفي بصريح الآية،فعلى ما سبق يكون أحسن الحديث: كتابا يشبه بعضه بعضا فأقسامه وآياته يشبه بعضها بعضا في هيأتها وصورتها .

(٤)- مثاني: مثان جمع مثنى ،ولم تستعمل هذه اللفظة في غير هذا المورد، ويساعدنا في تحديد دلالتها أنّ القرآن استعمل المفرد منها وهو(مثنى) غير المعرّف بـ(أل) في ثلاثة موارد هي قوله تعالى :

= (فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ...)(النساء٣)

= (قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ)(سبأ٤٦).

= (الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)(فاطر١). ويبدو واضحا أنّ الدلالة القرآنية للفظة(مثنى) هي:الاثنان أوالاثنتان مجتمعان سوية !. وهذه الدلالة لـ (مثان) النكرة مع دلالة الجمع فتكون دلالتها على ثنائيات متعددة ومجتمعة معاً.على ذلك فإنّ أحسن الحديث مشتمل على أجزاء أوكلمات مكتوبة بصورة مكررة في ترتيب ثنائي كل شيئين منها سوية. إن اجتماع الوصفين في هذا الكتاب أعني:(متشابها مثاني) يضعنا بإزاء كتاب يشبه بعضه بعضا مرتب على هيأة مكررات ثنائية ؛وبذلك فهو كتاب ذو نمط غير مألوف من التأليف وذكر الأحداث. وكأنّ هذا ألفاظ هذا الكتاب قد صيغت على وفق نظام للتشفير، ولمّا كان ما فيه من أمور الغيب،وتقشعر لها الجلود، فيكون الـ(كتاب) اشتمل على الأهوال التي ستحلّ على الأرض، ومصائب المؤمنين، وما سيبتلون به.وذلك يقودنا لقول بأن الآية ليست بصدد ذكر صفات القرآن الكريم ، بل هي تذكر كتابا إلهيا هذه هيأته، قد يكون من جملة اللوح الحفوظ، أوهو الكتاب الذي كتب الله فيه حوادث الدنيا الى انقضائها بكل تفاصيلها مما لايعلمه غيره إلاّ من ارتضى،وكأنّ هذه الطريقة فيها ما فيها من أسرار يمكن أن يختزل بها كمية هائلة من المعلومات. وقد جاء استعمال لفظة كتاب في موارد كثيرة ،منها ما جاء في قوله تعالى:

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)(هود ٦) ويظهر الربط هنا مع (تأويل الأحاديث) في ذكر لفظة رزقها هنا وهي التي ذكر الفعل منها(ترزقانه) على لسان يوسف (ع) مخاطبا صاحبيه ،ومن هنا نقترب من القول في دلالة لفظة (المثاني) القرآنية الواردة في القرآن في مورد وحيد وذلك قوله تعالى:(وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ) (الحجر٨٧) للدلالة على جنس من الكتب الإلهية التي تم نسجها بطريقة خاصة هي نفسها الطريقة التي نسج عليها (كتاب أحسن الحديث) الذي نحن بصدده. فآيات هذه الكتب رُتِّبت على هيأة تجمعات ثنائية مكونة من آيتين آيتين ،أو لفظتين لفظتين، أو حرفين حرفين بحسب ما يمكن أن تحتويه هذه الكتب المثناة؛ ما يعني أنّ الرسول الكريم(صلى الله عليه وآله) قد أوتي سبع كتب من هذا الجنس،وأفرد عنها(القرآن الكريم) لما بينه وبينها من تمايز مع وصفه بـ(العظيم) التي تظهر كون القرآن أرفع مكانة مقارنة بهذه السبع من المثاني. وذكر القرآن في هذا السياق عطفا على (سبعا) يعضّد الناحية الكتابية لهذه السبع.ويظهر أن الحرف الجر(من) ذكر لبيان جنس هذه السبع لا لدلالة التبعيض إذ لا دليل يؤكد وجود كتب أخرى لها الهيأة نفسها من التأليف ونسج الآيات ويبدو أنّ هذه الكتب الإلهية من مختصات النبوة التي يخصها الله تعالى نبيه الكريم ، لأنه لم يجرِ تداولها ، وفي السنة النبوية الطاهرة المروية من طريق أهل البيت ومن طريق بقية أصحابه في كتب أهل السنة من أمور الغيب وحوادث الزمان وآخره وكلام الله المروي في الأحاديث القدسية ما يمكن أن يفهم أنه قد تمّ أخذه عن الله تعالى من هذه الكتب، ولايمنع أن يطلع رسول الله بعض أصحابه وأهل بيته على مافيها، وذلك هو صريح تكملة الآية كما في الفقرة ذي الرقم(٥) الآتية. مما تقدم ظهر البون الشاسع بين هذه الدلالة التي توصلنا إليها، وما ذهب إليه المفسرون من تفسير السبع المثاني التي اختلفوا في المراد منها على آراء كثيرة ذكرها مختصرة صاحب لسان العرب في كلامه عن المادة(ثنى)(١٨)،ومن تلك الآراء :سورة الحمد أوأنها سورالقرآن لكونها تثنى على مرالأوقات وتكرر فلا تدرس أو أنها السور السبع الطوال. وأيضا قولهم في وصف كتاب بـ(مثاني) لما يُثنّى وتتجدّد فوائده حالاً بعد حال. (١٩) (٥) تَقْشَعِرُّ مِنْهُ الْجُلُودُ: قوله تعالى:(..تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ..) يتعلق هذا الوصف بالجماعة المؤهلة للاطلاع على هذا الكتاب، واستيعاب ما قد تهول المرء معرفته؛ إذ الجلود تقشر لدى سماعها آيات بهذا المعنى مثلما يهولها ما تسمعه من آيات الوعيد، ومواقف الحساب، وعظمة بعض الأقدار، ومجريات الإبتلاء وضيق الدنيا على المؤمنين على رحبها؛ مما جاءت به بعض آيات القرآن الكريم ؛لكن جانبا واسعا من آيات القرآن تنحو الى تنظيم جوانب حياة الإنسان الاجتماعية والاقتصادية والثقافية من قبيل آيات النكاح والمواريث والزكاة والخمس وذكر ما أحل من الطيبات والجنات ونعيمها. وهو مالا وجه لأن تقشعرّالجلود عند قراءتها أو سماعهم؟! ولا يعني ذلك التوهين من مقام هذه الآيات الكريمة فلكل من الآيات عظمتها على المستويين العقلي والعاطفي، ولها الإعجاز الإلهي المتعدد الجوانب.إلاّ أني أريد التأكيد على أنّ الوصف المذكور في الآية موضع البحث لكتاب ليس المقصود به(القرآن الكريم) بل هو ما سبق ان ذكرته في الفقرة السابقة. لقد تمّ الربط بين(الذين يخشون ربهم)الواردة في الآية وبين الغيب في آيات أخرى الأمر الذي يعضّد خصوصية ما يُطلِعهم الله ورسوله عليه؛ قال تعالى:(...إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ...)(فاطر١٨)، وقال تعالى:(إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ) (الملك١٢). ويرد لفظ (ربّهم) لإظهار طبيعة علاقتهم مع الله تعالى إذ تؤسس على إحساسهم بالواجب الأخلاقي،واعترافهم بنعم الله لا على الخوف من القدرة والعظمة الإلهية التي يدل عليها لفظ الجلالة(الله) فتكون عبادتهم له(أو

خشيتهم الله) نابعة من منطلق (عبادة العبيد)؛ بل هي عبادة الأحرار التي يدل عليها قول الأمام علي (كرم الله وجهه):(ربي ما عبدتك خوفا من عذابك أو طمعا في جنتك، بل وجدتك أهلا للعبادة فعبدتك). مع ملاحظة أنّ مظهر الخشية عند اطلاعهم على ما فيه هذا الكتاب ينحسر ههنا، ليبدو عليهم مظهر السكينة بذكر الله ،هو اللفظ الدال على الألوهية المطلقة لله تعالى .

أقرب الأمثلة:

إنّ أقرب صورة إلى الأذهان يمكن أن نمثل بها طريقة نظم هذا الكتاب الموصوف بـ(متشابها مثاني)من واقع حياتنا المعاصرة -هو ما وصلت إليه تكنولوجيا المعلومات،لاسيما التقنية الرقميةالتي يقوم عليها نظام الحاسب الآلي(الكومبيوتر) إذ تستطيع تخزين كمية هائلة من المعلومات لا تستوعبها إلا مئات الآلاف من الكتب المطبوعة! ولا يتعدّ مكان ذلك التخزين بضعة سنتمترات أو اقل من ذلك؛ علما أنه يستند على نظام كهربائي يرمز له برقمين (o|) يكرران (o|o|o|o|) فالرقم(o)يرمزلعدم وجود تيار كهربائي، و يرمز(|) لمرور التيارالكهربائي. ويتكرر هذا النظام في خلايا التخزين ملايين المرات و سمي هذا بالنظام الرقمي .ومن هنا نرى أنّ هيأة(o|) رمزان افتراضيان يتكرران على صورة ثنائيات متشابهة. ومثلما للحاسب الآلي ما يناسبه لاستخراج تلك المعلومات المخزونة،فإن لهذا الكتاب الإلهي مفاتيح تناسبه لأستخراج مافيه من معلومات، قال تعالى : (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) (الأنعام٥٩)

المبحث الرابع: آيات الكتاب: محكمات ومتشابهات

تقدم في ما سبق القول بأن لفظة (متشابهات) ذكرت مرة واحدة في القرآن وجاءت وصفا لضرب من آيات الكتاب_ يضمها قسم منه_ مع ضرب آخرهو(آيات محكمات) وقد قلنا فيما تقدّم:إن متشابهات(يعني أنها آيات يشبه بعضها بعضا)؛ وهي سياق الدلالة نفسها لـ(متشابه) التي ظهرت في الاستعمال القرآني لهذا اللفظ.

أولا: آيات متشابهات :

قال تعالى:(هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ)(آل عمران٧-٩) ابتدأت سورة آل عمران بما عرف بالحروف المقطعة، وهي مكونات حرفية ظهرت في بدايات طائفة من السور القرآنية، وقد أعقبها في الآية الثالثة ذكر(الكتاب) وهذا الاقتران مابين هذه الآيات التي تتكون من الحروف المقطعة وبين الكتاب سيظهر جليا في أكثر الموارد التي جاء فيها ذكر هذه الحروف ؛ ولنا وقفة مفصلة عند هذا الاقتران في بحث آخر في الدلالة القرآنية للفظة الكتاب. وأعقب ذلك ذكر الكتب السماوية التي أُنزلت من قبل:وهي التوراة والإنجيل والفرقان، ثم ذكر قدرة الله بأنه لا يخفى عليه شيء، وهوالذي يصوّركم في الأرحام كيف يشاء .ومن بعدها جاءت الآية مدار البحث وهي الآية السابعة من سورة آل عمران،ونصت الآية على أنّ (الكتاب)الذي أنزله الله تعالى فيه قسم من الآيات هي على نوعين هما :

١ - آيات محكمات هن أمّ الكتاب.

٢- آيات متشابهات.

إذ يدل وجود(منه) متعلقاً بلفظة الكتاب، والعطف بالتشريك بين هذين الضربين من الآيات على كونهما من قسم واحد من الكتاب؛ويعني ذلك أن هناك آيات أخرى يضمّها هذا الكتاب غير هذه الموصوفة بالمحكمات والمتشابهات. وهي مسألة لم يذكرها المفسرون ممن اطّلعنا على تفسيرهم لهذه الآية. لم ترد لفظة(محكمات) في غير هذا الموضع من القرآن الكريم، ولكن أُستعمِل المفرد منها(محكمة) نكرة غير معرف بال أيضاً– وذلك في موضع واحد وصفا لـ(سورة) قال تعالى:(وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ)(محمد٢٠). استعمل القرآن الكريم مجموعة من ألفاظ هذه المادة(أي:حكم)، ولو تأملنا في دلالاتها لوجدنا الاستعمال القرآني حافظ على إطارها الدلالي اللغوي العام وهو:(الاتقان) أو(المنع من الفساد)؛ جاء في القاموس: ((أحكمه :أتقنه فاستحكم ومنعه عن الفساد))(٢٠) و((منع منعاً لإصلاح))(٢١) وعلى هذا فالحكيم فعيل من حكم الذي يضع الأشياء في مواضعها المانع من فساد متعلقها. وبهذا فآيات مُحْكَمات ببناء اسم المفعول:آيات متقَنة ممنوعة عن الفساد، والتغيّر الذي قد يسعى اليه بعض الناس لتحقيق مآربهم، وسمّيت هذه المحكمات بـ(أمّ الكتاب).

المحكمات أمّ الكتاب:

استعمل تركيب (أمّ الكتاب) في موضع آخرمن القرآن وذلك في قوله تعالى:(يمحوالله ما يشاء ويُثبت وعنده أمّ الكتاب)(الرعد٢٩).ويظهر في الآية الربط بين فِعلَيْ(يمحو)و(يثبت) مع أمّ الكتاب، وهو أمرجدير بالملاحظة لإبراز وظيفة هذه الآيات، ومن ثم تحديد طبيعتها، أوعلى الأقل تصوّرها . فهذه الآيات التي عُبّرعنها بـ(أم الكتاب) لها الهيمنة على مجمل ما ينزل من أمرالليل والنهار، وأرزاق العباد،وغيرذلك من التفاصيل الجزئية. وتتضح هذه الدلالة من سياق الآية إذ أتى بالواو لتربط الفعلين بما اختصّ الله به نفسه فقال(عنده). وتبرزهيمنة هذه الآيات على الحوادث عبرالقدرة على التغييرفي التفاصيل، مع كونها من جملة ما تفرّد الله تعالى بها، ولم يَكِل أمرها الى غيره؛ وله تعالى أن يغيّر فيما كتب وقدّرمن حوادث الدنيا والآخرة. ولعل ما ذكره ذكر الرازي في الآية مما يفيد ذكره لتوضيح الدلالة القرآنية لأم الكتاب عبر الفعلين المذكورين في الآية، فقد ذكر فيها قولين هما:((القول الأول :إنها عامة في كل شيء كما يقتضيه ظاهراللفظ ؛قالوا:إن الله يمحو من الرزق ويزيد فيه،وكذا القول في الأجل، والسعادة، والشقاوة ، والإيمان والكفر،وهومذهب عمرو بن مسعود. والقائلون بهذا القول كانوا يدعون ويتضرعون إلى الله في أن يجعلهم سعداء لا أشقياء، وهذا التأويل رواه جابر عن رسول الله صلى الله عليه[وآله]وسلم))(٢٢). وممّا جاء في تفسيره للمحو والإثبات:((أنه تعالى يثبت في أول السنة حكم تلك السنة فإذا مضت السنة محيت،وأثبت كتاباً آخرللمستقبل، وذكرمن الأقوال

الثامن:أنه في الأرزاق والمحن والمصائب يثبتها في الكتاب، ثم يزيلها بالدعاء والصدقة،وفيه حث على الانقطاع إلى الله تعالى.التاسع تغيرأحوال العبد فما مضى منها فهو المحو وما حصل وحضر فهو الإثبات. العاشر: يزيل ما يشاء ويثبت ما يشاء من حكمه لا يطلع على غيبه أحدا فهوالمنفرد بالحكم كما يشاء، وهو المستقل بالإيجاد والإعدام والإحياء والإماتة والإغناء والإفقار بحيث لايطلع على تلك الغيوب أحد من خلقه))(٢٣) ؛ وأونوه الى الفرق بين هذا ومسألة الإطّلاع على الغيب الذي نصت القرآن على إمكان حدوثه لمن ارتضاه الله ؛قال تعالى: عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا*إِلاّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا(الجن٢٦ -٢٧). على ما تقدّم فالآيات المحكمات (المسمّاة بأمّ الكتاب) تسلك مسلك المفاتيح المتحكّمة لإيقاع تلك التغيرات ومحو غيرها.إنّ دلالة الهيمنة على بقية أجزاء الكتاب التي تدل عليها لفظة(أمّ) تعضّد عبر تركيب قرآني آخرهو (أمّ القرى) الدال على مكة المكرمة (٢٤) قال تعالى: (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ)(الشورى٧) وجاءت اللفظة في استعمال آخر عام لكل القرى بلفظ (أُمّها)في قوله تعالى:(وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلاّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ) (القصص٥٩). ولقد ذكر أهل اللغة:((أمّ الشيىء أصله)) (٢٥) وتُظهر تسمية(أم القرى) لمكة مكانة رفيعة ،فلها الهيمنة الاجتماعية والدينية والاقتصادية على سائرمن حولها من القرى؛ والتغيرات التي تحدث فيها سيكون لها صدى في بقية القرى،وهوما أشارت إليه الآية (٥٩ من القصص) على نحوٍ أكثر وضوحاً. على ذلك فان مفتاح التغيرات التي يسعى إليها الرسل(عليهم السلام)في مجتمعاتهم يكون في تلك القرية الأم للقرى التي من حولها،وبهذا فإنّ دلالة الأم في التركيبين (أم الكتاب وأم القرى)أنها الأصل لإحداث التغيرات المطلوبة فيما يتعلق بها.ولقد بدت هذه الدلالة واضحة فيما روي عن الإمام علي(عليه السلام) وهوقوله:((ولولا آية في كتاب الله لأخبرتكم بما كان، وما يكون، وما هو كائن إلى يوم القيامة ؛وهي هذه الآية:يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب))(٢٦)ما يعني أن الإمام علي هو من جملة أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) الذين أطلعهم رسول الله على ما أطلعه الله عليه مما ذكر في الكتاب المتشابه، وجاء من الأحاديث ما يعضّد ما مضى من دلالة الألفاظ من ذلك ما ذكره الحاكم النيسابوري بإسناده:((عن عكرمة،عن ابن عباس رضي الله عنهما، في قول الله عز وجل:(يمحو الله ما يشاء)؛ قال: من أحد الكتابين هما كتابان يمحو الله ما يشاء من أحدهما(ويثبت وعنده أم الكتاب) أي جملة الكتاب)) وقال:((قد احتج مسلم بحماد واحتج البخاري بعكرمة، وهو غريب صحيح من حديث سليمان التيمي ولم يخرجاه)).(٢٧) وروي بإسناده((عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، في قوله عز وجل:(يمحو الله ما يشاء ويثبت) قال: ينزل إلى السماء الدنيا في شهر رمضان فيدبر أمر السنة، فيمحو ما يشاء غير الشقاء والسعادة، والموت والحياة))(٢٨) وجاء ما يبيّن أنّ(أم الكتاب) خصّ نفسه تعالى بها كما تقدّم في أية المحو والإثبات، وذلك في قوله تعالى:(وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ)(الزخرف٤) فلدينا متعلق بأم الكتاب كما كان (عنده) متعلقا بالله في الآية المتقدمة وام يتعلق لدينا ليس بالضمير في(إنّه) ولو كان متعلقا به لقال:وإنّه لدينا في أم الكتاب؛وجاء من الأحاديث في تفسير آية المحو والإثبات ما يعزز الدلالة التي ذكرناها لأُم الكتاب؛من ذلك ما روي عن الفضيل بقوله:((سمعت أبا جعفر(عليه السلام) يقول:(العلم علمان:علم علمه ملائكته ورسله وأنبياءه، وعلم عنده مخزون لم يطلع عليه احد، يحدث فيه ما يشاء...))(٢٩) ، وذكرت بعض الأحاديث أنّ كل ذلك مكتوب عند الله في(كتاب)، وذلك ما ورد عن الصادق(عليه السلام) بقوله:((إن الله تبارك وتعالى كتب كتابا فيه ما كان وما هو كائن،فوضعه بين يديه، فما شاء منه قدم، وما شاء منه محا، وما شاء منه اثبت، وما شاء منه كان وما لم يشأ لم يكن)).(٣٠)

تمثيل العلاقة بين محكمات ومتشابهات:

بيّن البحث أن المحكمات تسلك مسلك المفاتيح لايقاع الحوادث أو تغييرها بمعنى أن لها الهيمنة على بقية ماهو مذكور في الكتاب آيات الكتاب ومنها (آيات متشابهات)،أو ما سُطّر فيه من أخبار الحوادث، ويستطيع من يعرفها(وهو الله لاغير)أن يتحكم بمجمل ما في الكتاب الذي يبدو كأنّه الكتاب الكوني؛ومن يتحكم بما يقع من الحوادث أو لايقع على الرغم من إخبار الله المجتبين من عباده بوقوعها ،ويظهر إنها من العلم الموقوف عنده سبحانه وتعالى. ولأجل تقريب المسألة إلى الأذهان نختار مثالا للعلاقة بين المحكمات وبقية ما في الكتاب، وذلك في بعض العمليات الرياضية ذات المتغيرات من نحو:

[س + ص = ع] أو [س + ٥ = ع] فقيمة(ع) ستتحدد من خلال قيمتي (س و ص) أو (س +٥) ومعرفة قيمة (ع)لايعني معرفة قيمة س و ص، وبمجرد تغير قيمة أحدهما سيؤدي ذلك إلى تغير في قيمة(ع)؛زيادة على أنّ هذه المعرفة لاتعني القدرة على التحكّم بقيمة هذه المتغييرات؛ فهكذا تكون بقية آيات الكتاب التي تشتمل على الحوادث والأرزاق وفيها القدرة لله على التغيير، فإذا كان التغيير فالمحكمات هي مفاتيح ذلك التغيير في تلك الحوادث بما يشاء الله من المحووالإثبات، والتقديم والتأخير،مما تقدّم ظهرت الدلالة القرآنية لمحكمات. أما الآيات المتشابهات فهي صفة للصورة أو الهيأة التكوينية الظاهرة للآيات فهي تشبه بعضها بعضاً، ويظهر أنّه بها يتمّ اختزال تفصيلات الحوادث بطريقة قريبة من طريقة التشفير.

تأويل المتشابه :

عوداً إلى الآية السابعة من آل عمران، وقوله تعالى في شطر الآية الثاني:

(...فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ...)(آل عمران٧) تأتي لفظة (زيغ) في القرآن الكريم لتشير إلى استقرار هذا الانحراف في قلوب هؤلاء؛ وخاصة مع تقدّم الجار والمجرور(في قلوبهم)،وجاء في الآية التالية ما يُبيِّن أنّ الزيغ هو الضد من الهداية فقد قال تعالى:(رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)(آل عمران٨)، إذ الفعل(هديتنا)هو الحالة الأسمى في العلاقة مع الله وهي منزلة تكتسب بعد الإيمان والعمل الصالح كما في قوله تعالى:(وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى) (طه٨٢).وإنّ البحث في دلالة هذا الفعل والألفاظ القريبة منه اشتقاقاً يحتاج الى وقفة مستقلّة؛إذ به يكتمل الربط بين أطراف الشبكة اللفظية والدلالية لهذا المقطع من سورة آل عمران!،وهو أمر لسنا الآن بصدد تتبعه.

والتأويل: هوالقدرة على اظهارالمعنى الحقيقي(الأوّل) لآيات هذا الكتاب؛ وبخاصة(ما تشابه منه) ،وبهذه الدلالة جاءت لفظة تأويل في القرآن الكريم، ولو تتبعنا استعمالات هذه اللفظة في القرآن الكريم ومنها ما جاء في سورة يوسف في(تأويل الأحاديث) فإنها تشير الى دلالة هي القدرة على إظهار المعنى أو الدلالة التي أرادها الله تعالى في آياته القرآنية ؛ ولذا كان تأويل الأحاديث على معنى القدرة على معرفة لما سيقع من حوادث في المستقبل من الزمان .ومن تمام هذا البحث أن يفرد بحث مستقل في الدلالة القرآنية للفظة (تأويل) إذ هي من الألفاظ الواردة في الآية(٧) من سورة آل عمران، وذلك ماعملت على إنجازه، وهو قيد النشر.

روافد بحث: المتشابه والمحكم في القرآن الكريم (بحث في الدلالة القرآنية للألفاظ)

القرآن الكريم .
الاحتجاج /لأبي أحمد بن عليّ بن أبي طالب الطبرسيّ(القرن السادس)/انتشارات المكتبة الحيدرية / الطبعة الأولى / ١٤٢٥هـ .
أصول التفسير والتأويل /كمال الحيدري / دار فراقد/مطبعة أستانة/إيران /الطبعة الثانية/١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.
البرهان في تفسير القران/هاشم البحراني /حققه لجنة من المحققين / مؤسسة الأعلمي للمطبوعات/ بيروت / الطبعة الأولى/١٤١٩هـ-١٩٩٩م.
شعب الإيمان/ أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى البيهقي الحافظ /الكتاب مرقم آليا غير موافق للمطبوع / قرص المكتبة الشاملة.
الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها /أحمد بن فارس /تحقيق :مصطفى الشويمي /مؤسسة أبدران للطباعة والنشر /بيروت /الطبعة الأولى /١٩٦٤م – ١٣٨٣هـ .
علوم القرآن/ محمد باقر الحكيم / مجمع الفكر الاسلامي /الطبعة الثالثة / /المطبعة : مؤسسة الهادي / قم /١٤١٧ هـ . ق.
القاموس المحيط /الفيروز آبادي /دار الفكر /بيروت /١٤٠٣هـ-١٩٨٣م .
لسان العرب لأبى الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الافريقى المصري / نشر أدب الحوزة /قم / إيران/ ١٤٠٥ هـ - ١٣٦٣ هش.
مجمع الأمثال /أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري الميداني /دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر والتوزيع/بيروت/١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
المستدرك على الصحيحين/ للحاكم /الكتاب مرقم آليا غير موافق للمطبوع / قرص المكتبة الشاملة.
المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم /محمد فؤاد عبد الباقي /منشورات ذوي القربى /مطبعة أميران / إيران /الطبعة الثانية / ١٤٢٣هـ-١٣٨١هش.
مفاتيح الغيب/أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي / الكتاب مرقم آليا غير موافق للمطبوع / قرص المكتبة الشاملة.
مفردات ألفاظ القرآن /لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الاصفهانى (ت ٤٢٥ هـ) /تحقيق صفوان داودي /نشر طليعة النور /الطبعة الأولى/إيران/ ١٤٢٦هـ.
وطبعة أخرى من :إعداد وتقديم محمد عبد الرحمن المرعشلي بيروت ط٢ /١٤٢٤-٢٠٠٣.
مفهوم الجملة عند سيبويه/د. حسن عبد الغني الأسدي/ نشر: دار الكتب العلمية/ بيروت/الطبعة الأولى/ ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧ م .

الهوامش:

[١] - ينظر: مفهوم الجملة عند سيبويه :١٨-١٩ وقد أتاحت دراسة الدكتوراه للباحث فرصة تطبيق هذا المنهج في إعادة قراءة كتاب سيبويه وكانت النتيجة مثمرة ،إذ تمّت قراءة الكتاب بوصفه مدوّنة لها استقلالها عن الآراء اللاحقة التي تحكّمت بفهم كلام سيبويه طوال القرون المنصرمة .

[٢] - لسان العرب : ١٦/٨مادة شبه.والمثل هو شطر بيت شعريّ،وينظر :مجمع الأمثال :٣٣٣/٢.

[٣] - لسان العرب : ١٧/٨مادة شبه.والآية (الأنعام٩٩) وهي قوله تعالى : **(وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)**.

[٤] - ينظر الصاحبي في فقه اللغة : ٢٢٣.

[٥]-: لسان العرب : ١٧/٨مادة شبه

[٦]- لسان العرب : ١٧/٨مادة شبه

[٧] – مفاتيح الغيب(تفسير الرازي):١٠٦/٤.وذكر ابن منظور مثل ذلك في مادة (شبه) .

[٨]- ينظر : علوم القران :١٩٦ وما بعدها ،أصول التفسير والتأويل :٢٤٦ وما بعدها.

[٩]- ينظر : أصول التفسير والتأويل : ٢٥٨ (القول الثالث عشر).

[١٠]- علوم القرآن : ١٩٤-١٩٥.

[١١] - لسان العرب : ١٧/٨مادة شبه.

[١٢] - البرهان في تفسير القران: ١٥٥/١.

[١٣] - لسان العرب : ١٨/٨مادة (شبه)

[١٤]- لسان العرب : ١٨/٨مادة (شبه)

[١٥] - لقد وقع أغلب المفسرين في الالتباس عندما تصوروا أن (**تأويل الأحاديث**)هو (تأويل الرؤيا) الذي امتاز به نبي الله يوسف(عليه السلام). بيّنت الآية أنّ الذي علّم الله تعالى يوسف يفوق بكثيرتأويل الرؤيا كما هو واضح .وقد أفردت بحثا خاصا في الدلالة القرآنية للفظة التأويل تناولت فيه (تأويل الأحاديث).

[١٦] - تاج العروس مادة(كتب)ج ٢

[١٧] - ينظر الفروق اللغوية:٤٤٦و٤٤٧.

[١٨] - ينظر : لسان العرب :مادة (ثنى)

[١٩] -- ينظر المفردات في غريب القرآن :. ١٧٩

[٢٠] - القاموس المحيط : مادة حكم .

[٢١] - مفردات ألفاظ القران : ٢٤٨.

[٢٢] - مفاتيح الغيب (تفسير الرازي):٦٤/١٩-٦٥.

[٢٣] - مفاتيح الغيب (تفسير الرازي):٦٥/١٩.

[٢٤] - ينظر: مفردات ألفاظ القران : ٨٥.

[٢٥] - اللسان: ١٥٩/١مادة (أم): قال :((**قال الخليل :كل شيىء ضم إليه سائر ما يليه يسمى أُمّا**))، وينظر: العين: ٨ ٩ مادة (أمم) ، و مفردات ألفاظ القران : ٨٥ ، و.

[٢٦] - الاحتجاج ٣٤٠/١.

[٢٧] - المستدرك على الصحيحين للحاكم:٤٧٢/٧.تفسير سورة الرعد.

[٢٨] - شعب الإيمان للبيهقي :١٧٨/٨.

[٢٩] - البرهان في تفسير القران ٢٩٣/١٤.

[٣٠] - البرهان في تفسير القران : ٢٩٣/١٤-٢٩٤.